خطر الموت !!

بقلم
سعيد ابو الحسن
النائب
في البرلمان السوري

لقد استقر في ذهنه أنه خطر على كل من يقترب منه : خطر على الأصدقاء وعلى الاعداء . وتمكنت منه هذه الفكرة حتى صار يخشى على نفسه من نفسه . فكرة لازمته ، واستبدت به ، ونغصت عليه حياته . صار يعتقد أنه يحمل على جبينه لوحة كتب عليها بحرف بارز عريض هاتان اللفظتان الرهيبتان . [خطر الموت !]

لقد طالما وقف أمام الاعمدة الكهربائية في الشوارع المزدحمة يقرأ عليها هذه العبارة [خطر الموت] وهو لا يدري أيقرأها على الاعمدة فعلا أم يقرأها ، من خلال نفسه . على جبينه . وهو على كل حال يدري أنه يحمل هذا الاعلان ، أجدر من عمود الكهرباء فهذا العمود قلما لامسه أحد ، قلما صعق أحداً . يكفي ان يراه الانسان ليبتعد منه ، إن جموده ورهبة منظره الخارجي ، وكثرة ما حمل من الاسلاك المتشابكة ، كل هذا يكفي لينبه اكثر الناس بلادة وسذاجه أما هو ، هو الشخص الجميل المنظر ، الحلو الحديث ، اللطيف المعشر ، ذو النظرات الجذابة والحركات المحببة الى النفوس فهو لا يملك ان يبعد الناس منه ، ولا يستطيع دفعهم وحملهم على كرهه . كل ما فيه يغريهم وكل ما فيه يصعقهم وإذا كانت له في اصدقائه حيلة ، فما حيلته في أعدائه ؟

إن خطره لا يقف عند من يقترب منه بل يتعداه إلى من يكرهه ويحاربه ويكيد له . ان ملامسته لا تقف عند حدود المادة ، بل هي تتعداها الى الملامسة المعنوية . وهي لا تقف عند الملامسة الايجابية [الحب ، القرب ، المخالطة] ، بل تتعداها الى الملامسة السلبية [البغضاء ، الابتعاد ، المحاربة] ! إنه ليحار في نفسه ! ماذا يصنع ؟

لقد بلغ عدد ضحاياه رقماً هائلا راعياً . ومع ذلك إنه يفيض حباً لأصدقائه واعدائه على السواء . لم يقصد في حياته مضرة أحد . ولم يجرب في حياته ان يمس احداً بسوء ، ليته يعرف سر نفسه ! ليته يعرف مكمن الخطر فيه ليقتلعه مرة واحدة أهو في عينيه ، أم في مغناطيسية جسمه ، أم في اشعاع روحه ، أم في حديثه المكهرب ، أم في لهجته النارية الصادقة ؟ انه لا يدري . ولو كان يدري لأخرس الحاسة المنيتة فيه الى الأبد . كل ما يعرفه أنه مميت على الرغم منه .

كل ما يعرفه ان الموت كان نصيب اعز اصدقائه وألد خصومه . ذهبوا في سلسلة متصلة الحلقات منذ أيام طفولته حتى أيام دراسته ، حتى أيام حياته العملية .

فهو يذكر كيف اختطف الموت ذلك الطفل الرفيق الذي كان يحبه اكثر من والديه وإخوته . كان لا يهنأ الا بقربه ولا يأنس الا به ، ولا يدرك للحياة معنى اذا كانت خالية منه . ثم جاء صباح قاتم ظلوم ، فسمع ان رفيقه قد قضى ليلا فريسة حمى خبيثة لم تمهله اكثر من يوم واحد .

كيف يموت هذا الطفل الجميل وتبقى على قيد الحياة تلك العجوز الشمطاء القبيحة المنظر التي كانت تضايقه ايما مضايقة بثرثرتها المتعبة عندما كانت تأتي لزيارة أمه — وما اكثر ما كانت تزورها — فترهق اعصابه بصوتها الأجش وبمداعبتها الخشنة وبقبلاتها المحمومة القذرة النهمة . لكم كانت تتعبه وتبكيه كلما لاقته في الطريق والحت عليه ليأتي اليها لتقبله عبثاً كان يتهرب منها . كانت تلحق به وتعبث بشعره الاشقر الناعم وتنهال عليه بقبلاتها ؟ كالعادة آه ! ليت هذه العجوز كانت فداء ذلك الطفل الحبيب . ثم جاء صباح رحيم حمل اليه نبأ وفاة العجوز . ولم يكن بين موتها وموت الطفل سوى يومين إثنين . هو لا يدرك شيئاً من سر الحياة ولكنه

يستعرضن حوادثها فقط .

ويمضي في الاستعراض فيجد نفسه تلميذاً في مدرسة القرية ، تلميذاً صغيراً خجولاً يلتف حوله أترابه ويغمرونه بحبهم وتفانيهم في سبيله . وينفرد بالقسط الاكبر من انتباه معلميه وعنايتهم . حتى يحسده كبار التلاميذ قبل صغارهم . وكان بين الكبار واحد ضخم الجثه اسود اللون ، في عينيه حول مخيف ، بلغ منه الحسد والحقد مبلغاً عظيماً فأخذ يضطهد صاحبنا اضطهاداً لا سبب له ولا معنى . يضطهده في المدرسة ساعات اللعب ويضطهده في الطريق وايناوجده وصاحبنا المسكين لا يبدي ولا يعيد . فهو لم يفعل سوءاً ولم يعرف بعد ، معنى الحقد والحسد . ولم يكن ليدور في خلده ان الناس يمكن ان يريدوا باخوانهم شراً لمجرد الرغبة في الشر وإيقاع الأذى . كثيراً ما انهال العملاق على التلميذ الصغير ضرباً ، وكثيراً ما مزق له ثيابه ، أو كتبه ودفاتره ، وكثيراً ما سلبه اقلامه وما يملك من أدوات اللعب أو الدرس وقد بلغ به اللؤم ان رمى به مرة عرض الطريق وركله عشرات المرات ثم تركه يعود الى بيته ممرغا بالتراب بصورة تدعو الى الشفقة . وكادت تقع معركة في القرية بين اسرتي التلميذين عندما رأى والد صاحبنا ابنه على هذه الحال .

وما كان اشد دهشة صاحبنا عندما ذهب الى المدرسة صباح اليوم التالي فأخبره رفاقه ان مضطهده العملاق توفي فجأة في الليل وقد عجب لوفاته الجميع لأنه كان يتمتع بصحة ممتازة . وكان التلميذ الصغير شديد الحزن لأنه لم يكن يريد الموت حتى لاعدائه . ولكن وفاة التلميذ الفظ فتحت في وجه صاحبنا طريق التعلم براحة ورغبة حتى ليمكن القول إن هذه الوفاة كانت من مستلزمات نجاحه ومضيه في طريق الحياة الصاعدة حتى النهاية . اجتاز مرحلة الدراسة الابتدائية بنجاح باهر فكان الأول في صفه في جميع الدووس وفي نسي الدراسة كلها .

ولما انتقل الى المدرسة الثانوية واصبح بعيداً عن قريته وأهله واصحابه أخذ يكون لنفسه حلقة جديدة من الاصدقاء اكثر تنوعاً من اصدقائه السابقين . فهو الآن بين طلاب قادمين من مختلف انحاء البلاد ومن بلاد غريبة ، يختار من بينهم من يشاء وفقاً للصفات التي ينشدها وبدون ان يكون للقرابة ، أو للصداقة الموروثة أي دخل في الموضوع فصار له اصدقاء من مصر ، وآخرون من العراق أو لبنان اصدقاء من المدن واصدقاء من الأرياف . وكان له بين هذا الجمع من الأصدقاء طالب عراقي — من الموصل — لايذكر أنه وجد في نفس واحد من الناس مرآة لنفسه كما وجدها فيه ، ولايذكر أنه أحب صديقاً مثلما احبه ، حتى في مسقط رأسه ، قبل زمن الدراسة وبعده . كان يسليه ويعزيه ويرشده سواء السبيل في كل الشؤون المدرسية . وكان له عوناً على كل صعوبة يواجهها في دروسه او حياته الخاصة وما من طالب في المدارس الداخلية يستغني عن مثل هذا الرفيق المخلص ممن هم أقدم عهداً منه . وافترقا إبان العطلة الصيفية وتراسلا طوال الصيف ثم عاد صاحبنا يستأنف دروسه وكله شوق الى لقيا صديقه ، ولكنه لم يجد أمامه سوى نبأ مشؤم يقول إنه توفي قبل ميعاد الرجوع الى المدرسة بأسبوع واحد . فانقلبت حياة صاحبنا الى جحيم . وعرف كثيراً من الاصدقاء والخصوم فيما بقي من سني دراسته وكان الموت يأخذ من الأولين مثلما يأخذ من الآخرين وصاحبنا لا يدري ما يفعل ! وهل من واجبه ان يعتزل الناس فيمتنع عن المصادقة والمخاصمة في آن واحد . وما ذنبه هو ما دام لا يريد بأحد أذى ؟ بل ما ذنبه فيما يحل بأصدقائه اذا فرضنا ان له فيما يحل بخصومه بعض الشأن ؟

أنهى دراسته وعاد الى بلده يجر وراءه سلسلة طويلة من الذكريات القاتمة لا يحجبها ما لاقاه من زهو النجاح وغبطة الظفر في جميع المباريات والامتحانات . وما كاد يستقر بين ذويه ويباشر حياته العملية حتى بدأت له علاقات كثيرة متشعبة ومن نوع جديد هذه المرة . بدأ ينشر في المجتمع مبادئه القومية الواعية فيلتف حواليه فريق من الشباب ، ويتألب عليه فريق اكبر من دعاة القديم يحاربون نزعته التحررية التقدمية يدافع من انفسهم تارة ويتحريض من الاجنبي المحتل تارة أخرى .

وكان اشد هؤلاء المتألبين خطراً ثلاثة لا يستطيع أحد مقاومتهم . وهم اذا اجتمعوا على امر لم يعد لاحد أمل في تنفيذ ما يخالف هذا الامر . إنهم قوة هائلة مكتسحة والناس يسيرون وراءهم كالسيل الجارف لا تقف في طريقه عقبة . وكان وقوف صاحبنا في وجههم اشد فترات حياته صعوبة وخطراً . ومع ذلك استمر على موقفه ، واذا الموت يسرع الى انقاذه على غير انتظار ، فاذا الثلاثة يغيبون في الثرى خلال سنة واحدة . واذا الجو يصفو لصاحبنا واذا حركته تعم جميع انحاء البلاد واذا مبادؤه تنتصر انتصاراً حاسماً منقطع النظير وبوقت لم يكن هو ذاته يحلم فيه . ولكنه ، يشهد الله لم يفرح دقيقة واحدة بمصرعهم ، لانه كان عاجزاً عن التفكير في الشر أو في مضرة الغير .

وكان في مطلع فترة الانتصار هذه يعد العدة لمؤتمر عام يضم جميع انصاره لبحث شؤون خطيرة لها علاقة ماسة بمستقبل بلاده . وكان موعد المؤتمر يوم جمعة على ما يذكر وما كان اشد دهشته واعظم أساه عندما تلقى نعي احد اركان حركته المناضلين اللامعين . والغريب انه توفي في قرية مجاورة للقرية التي كان سيعقد فيها المؤتمر . وتنادى جميع الرفاق فشيعوا جثمان فقيدهم العزيز الى مقره الاخير ونثروا على قبره الاكاليل المبللة بالدموع وانتقلوا من المأتم الى المؤتمر . فكان المؤتمر آية في النظام وكانت له آثار بعيدة المدى قررت مصير البلاد في أخطر مراحل الحياة الوطنية ، مرحلة التحرر عام ١٩٤٥ . وكأن الله أراد أن يذكر صاحبنا مرة أخرى بأنه مكتوب على جبينه أنه لا يخطو خطوة إلا محفوفة بالموت ، مضمخة بعبير الفداء فكان كلما سطر في مذكراته نبأ عمل جديد وضع الى جانب اسم واحد من رفاقه شارة ، تدل على أنه توارى عن الانظار الى الابد .

وهنا انفتحت في تأريخ حياته صفحة جديدة ما زالت سطورها السود ترتسم واحداً بعد واحد ولا يعلم أحد متى تنتهي . لقد بدأت هذه الصفحة ببداية معركة فلسطين الدامية . وكان له بين المحاربين النظاميين وغير النظاميين نخبة مختارة من رفاق الكفاح القدماء البواسل . كانوا جلهم من الضباط المستقتلين دفاعاً عن عروبة أي جزء من اجزاء وطنهم العربي الأكبر وبخاصة الأرض المقدسة . لقد جاءت اخبار بطولتهم الخارقة في معارك [سمخ] و [الدردارة] و [تل العزيزيات] و [ومشمار هايردن] الاسطورية ، دليلا ساطعاً على ما يستطيعه الايمان الأصيل في معركة غير متكافئة بالعدة والعدد . ولكن اخبار البطولة كان يتخللها نعي افراد هذه النخبة واحداً بعد واحد : كان الرصاص يختارهم من بين رفاقهم فيسقطون صرعى بين صفوف العدو وكلمة العروبة على ألسنتهم ، وفي آخر خفقة من قلوبهم ، وآخر قطرة من دمائهم الزكية . وكان صاحبنا ينتقل من فاجعة الى فاجعة ، يسجل كل يوم أسى جديداً حتى صار يخشى أن يأتي على نهاية اللائحة . إنه لم يعد يتحمل . ان قلبه يكاد ينفطر . ان قلبه [اني غشاه من نصال] .

لم يسقط في الساحة سوى رفاقه . سوى هؤلاء الذين نفخ فيهم من روحه يوم سارروا الى المعركة . سوى هؤلاء الذين عاش وإياهم اجمل ساعات العمر ، ساعات التأهب والنضال في شتى الميادين . يالله ! لماذا يختار الموت هؤلاء دون سواهم !

انه بدأ يفكر ! انه بدأ يشك في أن له يداً في هذا المصير لجميع الذين يؤاخونه أو يجاريونه . انه لن يقوى على احتمال هذا المصير ! انه لا يطيق أن تتمكن منه هذه العقيدة [هذه الفكرة الوحيدة] هذا الضرب من الجنون انهم كانوا يموتوا سواء كانوا اصدقاءه واعداءه أم لم يكونوا ! ما هذا الجنون ! ما هذا الوسواس ! ما هذا التفكير الغريب !

ولكن الفكرة متمكنة من نفسه . انها اقوى منه ! أقوى من كل تفكيره وفلسفته ! انه قرر أن يجعل من قلبه ، بعد اليوم ، حجراً صلداً لا يشعر بمحبة ولا ببغضاء ، لا يميل الى أحد ولا يكره أحداً . انه جامد يكاد لا يشعر بما يشعر به الناس وفوق هذا كله ، وخوفاً من ان يكون هذا كله غير كاف ، فقد قرر أن يهجر بلده الى بلد آخر على هذا البعد ينقذ البقية الباقية من أصدقائه .. وممن يحسبون انفسهم اعداءه !

القامشلي { سوريا } سعيد ابو الحسن المحامي